ديمقراطيـــة الطبيعة

للأستاذ احمد أمين

يعجبني البحر في جماله وبهائه ، وجلاله ولانهايته ، ويعجبني كذلك في ديمقراطيته ، فهو لا يسمح لأحد أن ينغمس في مائه إلا اذا تجرد من كل المظاهر الكاذبة التي خلقتها المدنية ، يجب أن يتجرد أولاً من ملابسه التي تميز بين الغني والفقير ، ومن ريائه ونفاقه ومظاهره التي اصطنعها ليجعل من الناس طبقات يتحكم بعضها في بعض . ففي البحر تتساوى الرءوس ، لا غنيّ ولا فقير ، ولا ذو جاه ولا عديم الجاه ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا حاكم ولا محكوم ، لا يتميزون بشيء إلا بلباس البحر ، وفي الحقيقة ليس هو لباس البحر ، وإنما هو لباس البر ، فليس للبحر لباس إلا ماؤه . ودليل أنه لباس البر أن الناس حاولوا به أن يتميز بعضهم من بعض ، واتخذوا منه شعاراً للغني والأناقة واللباقة والوجاهة ، والبحر لا يعرف شيئاً من ذلك ، إنما يعرف ذلك البر ، ومن أجل هذا سرعان ما ينغمس الناس في البحر ، فيسدل بمائه الأزرق الجميل ستاراً على كل أثواب الرياء حتى لا ترى بعد إلا رءوساً عارية لا يميز بينها شيء من الصنعة ، ثم هو يرسل أمواجه تداعب الناس على السواء ، فتغازل الأسود كما تغازل الأبيض ، وتصفع الجميل كما تصفع القبيح ، وتعبث بلحية العالم ، كما تلعب برأس الجاهل ، وأحياناً يهيج هائجه ، وتثور حفيظته ، فيزفر من الغضب ، حتى ليكاد يخرج من إهابه ، ويطفر من ثيابه ، ويربدّ وجهه فيلفظ بالزبد ، وينتفخ ويرتعد ، ويرقص من غير طرب ؛ وهو في هذه الحال لا ينسى ديمقراطيته ، يأتي للباخرة الضخمة قد أخذت زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليه فيبتلعها في لحظة ، لا تغني عنه محصنات العلم القديم ولا الحديث ، كما يبتلع أحياناً صبياً وديعاً وشيخاً ضعيفاً ، ليبرهن أنه لا يعبأ بقوة ولا ضعف ، ولا يخشى بأس كميّ ، ولا يرحم ضعف أعزل ، سواء هو في هزله وجده ، وسواء هو في حلمه وغضبه — ما أجل البحر ، وما أجله ، وما ألطفه ، وما أقساه !

على أنه يظهر لي أن الطبيعة في جلتها ديمقراطية لا أرستقراطية ، ولا أرستقراطية إلا في الانسان الكاذب ، فالشمس ترسل أشعتها الذهبية ، والقمر أشعته الفضية ، على الناس سواء : على المؤمن والكافر ، والأسود والأبيض ، والغنيّ والفقير ، والكوخ الحقير ، والقصر الكبير .

ويأتي الجو بريح سموم فتلفح وجوه الناس على السواء ، لا تميز عظيماً ولا حقيرا ، ولا شريفاً ولا وضيعا ؛ ثم يأتي بريح طيبة تنعش الناس كذلك ، لا يعرف في شيء من ذلك محاباة ، ولا يعرف طبقات ، ولا يعرف أي نوع من أنواع التفاوت التي تواضع عليها الناس ، يرسل في الصيف شواظاً من نار فيدخل على الأمير في قصره ، وعلى الفقير في كوخه ، فلا يهاب عظيما ، ولا يحتقر وضيعا ، ويرسل في الشتاء برده القارس فلا يستطيع أن يتقيه الغني بصوفه وملابسه ، ولا بمدفأته وناره ؛ كما لا يتقيه الفقير في عدمه وبؤسه ؛ ثم تطلع شمس جميلة ، ويعتدل الجو ، فتحتضن الطبيعة الناس على السواء وتكون لهم جميعا أمّاً حنونا ، مشفقة بارة — إن تحدث الباشا أو البيك في نفسه بأنه فوق طبقات العامة ، وأنه يستطيع في شرع العرف والعادة أن ينعم بما لم ينعموا ، فتُفسح له الطريق ، ويخلى له السبيل ، وتفتح له أبواب المجتمعات ، ويعامل أولاده وأقاربه بما لا يعامل به الفقراء ، فلن تحدثه نفسه أن يمتاز من الفقير في حر ولا برد ، ولا نور ولا ظلام ، فان أخطأ في ذلك وظن أنه يغالب الطبيعة في شيء من قوانينها صفعته صفعة آمن بعدها بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، وأدرك أنه إن علا الناس بماله أو جاهه ، وإن تلاعب بأوضاع الناس لسخف الناس ، فهو أمام أوضاع الطبيعة حقير ذليل .

* * *

ثم يأتي القدر فينثر نعمه ونقمه ، وشره وخيره على الناس جميعا ، فصحة في الأغنياء والفقراء ، ومرض في الأغنياء والفقراء . وتجد غنياً فاتر القوى منقوف الوجه ، يبيت يتضور من الألم ، يود لو خرج عن كل ماله وجاهه لتعود اليه صحته ، وبجانبه فقير مستحكم الخلقة ، متين البنية ، ممتلئ قوة وشدة وصلابة — وتجد جمالاً في الأغنياء والفقراء ، وقبحاً في الأغنياء والفقراء ، فهذه

فقيرة مشرقة الجبين ، صافية الأديم ، مفرطة الجمال ، معتدلة القوام ، لا تفتح العين على أجمل منها صورة ، ولا أتم منها حسنا ؛ وهذه سيدتها الغنية دميمة الخلقة ، منكرة الطلعة ، تنبو عن منظرها الأحداق ، وتتفادى من مرآها الأبصار ، تريد أن تتجمل بالصناعة والأصباغ والحلى والملابس ، فلا يزيدها ذلك كله إلا قبحا ، على حين أن جارتها الفقيرة جميلة فى طبيعتها ، جميلة فى بساطتها ، جميلة حتى فى ثيابها المهلهلة !

وللقدر فى ذلك بدع ، فأشهر طبيب فى القلب يموت بالقلب ، وأعظم جراح يموت بالتسمم . وتلد الفلاحة الفقيرة فى الطريق وهى حاملة قدرتها مملوءة ماء على رأسها ، ثم يقطع « الخلاص » وتحمل طفلها وتذهب الى بيتها سالمة غانمة ؛ وسيدتها الغنية يحلل دمها وغير دمها قبل الوضع ، ويعقم كل شيء فى حجرة ولادتها ، ويقف مشاهير الطبيبات والأطباء على بابها ، حتى اذا آذنت ساعة الولادة بالقدوم استخدم كل ما وصل اليه الطب الحديث ، والكيمياء الحديثة ، والعلم الحديث ، وأمعنت جمهرة الأطباء فى التطهير والنظافة واتخاذ وسائل الراحة والحصانة ، وغير ذلك مما لم أذكر منه إلا قليلا ؛ ثم هى بعدُ تصيبها حمى النفاس ، ويقف الطب والعلم دهشاً حائرا ، ثم تسلم الروح الى ربها ، هازئاً بكل ذلك القدر .

* * *

وهناك نوع من الارستقراطية غريب ، هو الارستقراطية العلمية ، فالمتعلمون ذوو الشهادات يعدون أنفسهم — وربما عدهم الناس أيضاً — نوعا ممتازاً من الناس ، يختلفون عنهم نوعا من الاختلاف ، ويرتفعون عليهم نوعا من الرفعة ، كما ترتفع طبقة الأغنياء وكما ترتفع طبقة الأمراء ، فالمتعلم ينظر الى أخيه الشقيق الجاهل نظرة فيها شيء من التعاظم ، وشيء من الازدراء ، وشيء من الغرور ، وان ساواه فى الدم ، وان ساواه فى الغنى أو الفقر ، وهو لغروره يظن أن شهادته تخوله الحق أن تكون آراؤه فى كل شيء خير الآراء ، وأن غير الجامعى لا يحق له أن يبدى رأياً بجانب رأيه ، حتى فيما ليس له اختصاص فيه

وهو كذلك نوع من الارستقراطية الكاذبة لا تعبأ بها الطبيعة ولا تعيرها أى التفات ، فقد جعلت بين المتعلمين أذكياء وأغبياء ، وجعلت بين الأميين أذكياء وأغبياء ، بل من غرور المتعلمين أن يسموا من لم يقرأ ولا يكتب جاهلاً وأمياً ونحو ذلك من الأسماء ، ويسموا من يقرأ ويكتب متعلماً ، كأن وسيلة العلم والحكمة والعقل القراءة والكتابة وحدها ، ونحن لو تحينا غرور المتعلمين جانباً لهزئنا بالقراءة والكتابة فى كثير من الأحيان ، ولو جدناهما وسيلة من وسائل الرقى ، ولكن بجانبهما وسائل أخرى ، ولوجدنا أنهما لا تستحقان هذا الغرور الذى ينشئ نوعا من الارستقراطية ، فالحكمة فى تصريف الأمور لا تعتمد على التعليم الجامعى ، وسعة العلم كما تعتمد على الفطرة البشرية ، والغريزة الانسانية . ومن ثم قد ترى الجامعى الحائز لأرقى الشهادات العلمية وهو أخرق فى الحياة ، سفيه فى التصرف ، وأخاه الذى يسمونه جاهلاً أمياً حكيماً فى تصرفه مدبراً لشؤونه وشؤون اخوته الجامعيين ، وترى الأمة قد تصاب على يد متعلميها فى أحوالها السياسية والاجتماعية أكثر مما تصاب على يد جاهليها ، والفلاح القروى الأمى قد يرزق من الحزم فى تصريفه ، وبعد النظر فى آرائه ، وصدق الشعور فى وطنيته ، مالا يرزقه أخوه الأستاذ فى الجامعة أو العالم الحائز لأرقى الدرجات العلمية ، بل قد يصدر من الرأى العام الجاهل فى شؤون وطنه ، وفى المسائل الهامة التى تعرض عليه ما يفوق رأى متفلسفة المشرعين ، وحيل القانونيين

ان نظرنا الى الذكاء ، فالذكاء مشاع بين المتعلم والجاهل ، وان نظرنا الى حكمة التصرف ، والحزم فى ادارة الأمور ، وتدبير شؤون الحياة ، فذلك أيضاً أمر مشاع بين الناس ، ففيم غرور المتعلمين وانشاؤهم أرستقراطية بجانب ارستقراطية الأموال والأعمال والطبقات . يطالبون أن يكال لهم المال جزافا ، ويطالبون ألا يهينوا أنفسهم فى عمل ، ويطالبون أن يكون ميراثهم من آبائهم أكبر نصيب ، ويطالبون أن يكون زبدة ما تخرجه الأمة لهم وحثالته لما يسمونه الجاهلين

ما أسعد الأمة تخفف من غلوها فى ارستقراطيتها ، بجميع أنواعها ، وتقلد الطبيعة فى ديمقراطيتها واعتدالها !

احمد امين